



مقدمة:

ما أُصيب المسلم بمصيبة أخطر وأعظم من مصيبة قسوة القلب فإنها إذا حلت بالإنسان لم تعد تجده الموات التي يسمعها، وإن كان واعظاً لم تعد تؤثر كلماته في أسماع الناس الذين يستمعون إليه، وما هُدِيَ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحق وما ثبتوه على الطريق المستقيم إلا بما متعهم الله به من رقة في القلب وتأثير بموافقت الترغيب والترهيب إنْ في كتاب الله عز وجل وإنْ في أحاديث المصطفى عليه الصلاة والسلام.

1- خطورة الغفلة المطبقة:

فاتحة لسورة في كتاب الله عز وجل عندما نقرؤها نتبه فيها لشحنة عظيمة من التهديد والتخييف والإذار والوعيد ما لو تنبه إليه الضالون لاهدوا، وما لو مرت على أسماع الغافلين لاستيقظوا، وما لو التفت إليه المنحرفون لاستقاموا.

في بداية سورة الأنبياء كلمات تهز الغافلين هزاً.. الحساب يقترب، والناس في غفلة، والآيات تتلى، ولكنهم معرضون، لأنهم في اللهو والباطل منغمضون، وفي الملذات والمنع الزائلة غارقون.

(اقرَّبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفَلَةٍ مُعْرِضُونَ) (1) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ زَكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٌ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (2) لَاهِيَةٌ

فَلُوِّبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْكُمْ أَفَتَأْنُونَ السَّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبَصِّرُونَ (3) (الأنبياء: 1-3)

الاهية قلوبهم والقلب الالهي عن الله تعالى صاحبه في ضنك وشقاء ولو كان في تعيم ورخاء؛ لأن الشقاء ثمرة الضلال، والضنك ثمرة الإعراض.

حقاً إن من الأمور الغريبة في حياة الإنسان هذه الغفلة المطبقة ولكن ليس شيء في حياة الإنسان أغرب ولا أعجب من أمر لا يزال يتصف به ويترقب فيه.

هذا الإنسان وَعَى بعقله وسمع من كلام ربه وأصغى إلى حديث رسوله عليه الصلاة والسلام، وعي من خلال ذلك كله حقيقة الموت، وأنه مقبل عليه، وأن غمراته لا يمكن أن يقف عندها حدّ من حدود الطبيعة التي يعرفها الإنسان..

علم الإنسان هذا من خلال إخبار الله عز وجل، وعلم ذلك أيضاً من طريق التجربة والمشاهدة إذ يودع كل يوم راحلاً من إخوانه ويمشي في جنازته وينظر في قبره وكيف يوسرد في ترابه، ثم إنه يسمع من كلام الخالق البارئ عز وجل مزيداً من التعريف بالموت وما وراء الموت فيسمع مثلاً قول الله عز وجل: (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَبَلُوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) (الأنبياء: 35)

ويسمع فيما يرويه ابن ماجة وغيره عن البراء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مشى في جنازة فجلس على شفير القبر يبكي حتى بلَّ الثرى، ثم قال: (يا إخوانى لمثل هذا فأعدوا) (ابن ماجه: 4195)، وحسنه الألبانى.

ومع ذلك كله فإنّ شيئاً من هذه الحقيقة العجيبة الرهيبة لا تأخذ بمجامع نفوسنا ولا تسسيطر على شيء من مداركنا، بل إنّك لتنظر إلى الإنسان على الرغم من هذا كله فتجده مقبلًا على الدنيا كسُكِّيرٍ أقبل على سُكْرِه، تجده مستغرقاً في لهوه كأنه مخلد في دار الدنيا وكأن خلق هذا الكون لا يقرع على سمعه كل يوم بالندير، وتجده إذا لاحت له الدنيا انقضى عليها ومشى إليها من كل سبيل ومن كل طريق سائغ أو غير سائغ، حقاً إنّ هذا أغرب وأعجب ما يمكن أن يقف عنده الإنسان من أعاجيب الدنيا وغرائب الكون.

أليس الأمر عجيباً أن يُعرض المسلم عن الله؟!

الليس غريباً أن يقضى المسلم حل عمره في غفلة عن مولاه؟!

لَا تزیده نعْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِلَّا إِعْرَاضًاً وَضَلَالًاً وَعَصْبَانًاً..

وَلَا يَزِدُهُ حَلْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِلَّا تَمَادِيًّا وَاسْتَخْفَافًا..

فمن الناس من يغتر بنعم الله عليه ويظن أن الله تعالى ما أنعم عليه بهذه النعم إلا لأنه يحبه، ولو لا أنه أهل لهذه النعم ما أنعم بها عليه!!

مع أنه مقيم على معاصيه ونسى هذا المسكين أن هذا استدراجا من الله تعالى.

ومن الناس من يغتر بحلم الله عليه فتراه يظلم عباد الله ويغشهم ويصد الناس عن سبيل الله وعن دعوته ويرتكب المعاصي والذنوب ولكن الله يمهله فلا يباغته بذنبه وجرمه فيظن أن هذه المعصية حقيقة وأن الذنب هين ولو كان الذنب عظيماً عند الله لأخذه الله بالذنب في الدنيا ولعجل له العقوبة، ونسى هذا المسكين أن الله يمهد ولا يهمل كما جاء في البخاري: عن أبي موسى رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ لِيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّىٰ إِذَا أَخْذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ) قال: ثم قرأ:

(وَكَذِلِكَ أَخْدُ رَبِّكَ إِذَا أَخْدَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْدَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) (هود: 102) (البخاري: 4686)

ومن الناس من يكرس للدنيا كل وقتها، وينصرف بكليتها إليها، ويصرف لها جده ووقته، يجعلها كل همه، ويتنافى في السعي لها ولو على حساب الآخرة، ومع ذلك يقولون نحن نحسن الظن بالله تعالى، وقد كنعوا.. لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل، وهذا الصنف من الناس - وما أكثرهم - لا يعرف لله طریقاً ولا سبیلاً، إذا ما ذکر لا يتذكر، وإذا ما نصحت لا ينتصح، وإذا دلّ صادق أمین على طريق الله سخر منه واستهزأ به وكأن الأمر لا يعنيه فكل همه الدنيا وكل طاقاته موجهة إلى الفانية فهي معبدوه الذي يتوجه إليه بخالص العمل وبخالص العبادة، ولا حول ولا قوة إلا بالله مع أنه لن يحصل من الدنيا إلا ما قدر الله له.

قال صلی الله عليه وسلم: (مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ فَرَقَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ، وَمَنْ كَانَتِ الْآخِرَةُ نِيَّتَهُ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ) (ابن ماجه: 227)، وصححه الألباني.

وقد حذر الله من التهالك على الدنيا والغفلة عن الآخرة تحذيراً شديداً، فقال سبحانه: (أَلَهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرُتُمُ الْمَقَابِرَ) (التكاثر: 1-2).

وقال: (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُ فَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَّا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَهْبِطُ مِنْ خَشْبَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) (البقرة: 74).

فيما ترى ما الذي يوقظ هذا المستغرق في سباته ونومه وأي أداة يمكن أن تكون رادعة له ولأمثاله؟!

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ) (الجاثية: 6)

2- ذكر الموت هو الضمانة لصلاح الدنيا والآخرة لأنّه نعمة من أجل النعم:

لقد حض النبي صلی الله عليه وسلم على الإكثار من ذكر الموت وأكّد أنه يفيد صاحبه في الدنيا قبل الآخرة، حيث يقنع الإنسان بما قسم الله له ويقضي على الحسد والطمع وحب الذات، ويحب إخوانه ويتمني الخير لهم، وينشط في العبادة ويسرع إلى التوبة والإنابة كلما حدث منه زلل أو عصيان.

لقد ذكر المصطفى صلی الله عليه وسلم مواقف الحساب بين يدي الله يوم القيمة، وأطال الحديث عنها:

قال: (أَكْثَرُوا ذِكْرَ هَادِمِ الْلَّذَاتِ: الْمَوْتُ إِنَّهُ لَمْ يَذْكُرْهُ أَحَدٌ فِي ضيقٍ مِنَ الْعِيشِ إِلَّا وَسَعَهُ عَلَيْهِ وَلَا ذَكْرُهُ فِي سِعَةٍ إِلَّا ضَيقَهَا عَلَيْهِ) (ابن حبان: 2993)، وغيره، وحسنه الألباني.

بل أطال كتاب الله في تصويرها والحديث عنها بطريقة تنخلع لها الألباب، وما ذاك إلا لأن حاضر الإنسان لا يمكن أن يستقيم إلا إذا ارتبط بالمستقبل الذي هو أَبْلَى إِلَيْهِ،حقيقة يعلمها كل إنسان عاقل إذا أردت أن تقوم اعوجاجاً في حياة المسلمين اليوم فذكرهم بالمال وما هم مقبلون عليه.

ولنا في حياة رسول الله صلی الله عليه وسلم وفي مواضعه البليغة قدوة وأسوة.

انتبه صلی الله عليه وسلم من نومه ذات ليلة، حيث قال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ! اذْكُرُوا اللَّهَ اذْكُرُوا اللَّهَ جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ تَتَبعُهَا الرَّادِفَةُ جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ تَتَبعُهَا الرَّادِفَةُ جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ) (أحمد: 21241)، وغيره، وحسنه الألباني.

3- تنبهوا قبل فوات الأوان وحصول الندم:

جدير بنا ونحن تمر بنا هذه الأيام العصيبة والامتحانات المؤلمة، وكل ما فيها يدعونا إلى الاعتبار والاعظام، جدير بنا أن نقف وقفه المتأمل لما يجري ونأخذ من هذا أكبر وأعظ ورادي عن كل مخالفة أو فساد.

حري بنا أن نصلح فسادنا ونقوم بوجاجنا وفتح صفحة جديدة مع الله تعالى نعاشه من خلالها على التوبة الصادقة النصوح والسير على صراطه المستقيم والإكثار من صالح العمل حتى تكون مستعدين للقاء الله فإذا ما وقفت بين يديه وجذناه ربياً كريماً غسل ذنبنا وقبل أعمالنا فنفوز بجنة عرضها السماوات والأرض.

يا عباد الله: تأملوا كيف أن الله عز وجل ينوع لنا في المواقع التي نشاهدها فيأخذ الجنين في بطنه أمه ويأخذ الطفل الصغير والشاب القوي والرجل الكبير والذكر والأنثى وفي كل ذلك أكبر منه لنا لنتيقوظ من رقادنا وسباتنا العميق، ولندرك أننا على ميعاد مع ساعة تسمى ساعة (الرحيل) نرحل فيها عن هذه الدنيا الفانية إلى الدار الآخرة الباقيه ولا نعلم متى يأتي هذا الموعد وكيف وأين؟؟؟

فما علينا إلا أن ننفض أيدينا من الدنيا وأن ندبر عنها أيما إدبار وأن نعد لما بعد الموت عدته لأننا لا ندرى ما الذي سنواجه به يوم تعرض الصحف والدواوين.

وهذا هو دواؤنا الوحيد للتخلص من أهوائنا وعصباتنا وعشقاً للدنيا والقتال عليها، والتخلص من جاهليتنا التي استحكمت بفسوسنا، ثم غطيناها بأردية الإسلام، فأصبحنا نتهاجر بهذا السلاح ونقاتل، وجعل أعداؤنا يصفون لنا لأننا بهذا نشرذم أكثر مما يحلم به أولئك الأعداء،

ووالله لا علاج لذلك كله إلا أن نعلم أن كفة الحياة التي تقلب فيها إنما هي ناظرة إلى كفة الموت الذي يتربص بنا، والذي أصبح قاب قوسين أو أدنى، وليس بعد هذا الدواء من دواء، دواء نافع وعظيم ناجع ولكننا نبتعد عن هذه القارورة المليئة بالدواء ليتجزئها كثير منا دفعه واحدة عند الموت، وحينها سنشعر بمرارة الدواء دون فائدة.

4- الغافل قد يحرّم من شهادة الناس المفضية إلى الجنة:

عن أبي الأسود الديلي، قال: (قدمت المدينة فجلست إلى عمر بن الخطاب، فمرروا بجنازة، فأثنوا عليها خيراً، فقال عمر: وجبت، فقلت لعمر وما وجبت؟ قال: أقول كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، «ما من مسلم يشهد له ثلاثة إلا وجبت له الجنة»، قال: قلنا: واثنان؟ قال: «واثنان»، قال: ولم نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الواحد)(الترمذى: 1059)، وصححه الألباني

وشهادة الناس هذه نتيجة طبيعية لما كان عليه ذلك الإنسان من حسن السيرة والاتصال بالله والتلطف مع الناس ورحمتهم وعمل الصالحات، بينما الغافل اللاهي محرومٌ من تلك الشهادة، بل قد يستريح الناس منه، كما في حديث أبي قتادة بن ربيع الأنصاري، أنه كان يُحدثُ: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ عَلَيْهِ بِجِنَازَةٍ، فَقَالَ: «مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ؟ قَالَ: «الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالبِلَادُ، وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُ» (البخاري: 6512، ومسلم: 950).

وقد يأخذ الله الغافل وهو غضبان عليه فيموت فجأة، كما قال صلى الله عليه وسلم: (موت الفجأة أخذة أسف) أي: غضب (رواه أحمد: 15496، وغيره)، وصححه الألباني.

والمراد أنه أثر غضبه تعالى، حيث لم يتركه للتوفيق، وإعداد زاد الآخرة، ولم يمرضه ليكون كفارة لذنبه، ولذلك تعوز صلى الله عليه وسلم منه، ولكن قد يريده الله بعده خيراً فيستعمله قبل موته فتحسن خاتمتها، كما قال صلى الله عليه: (إذا أراد بعد

خيراً استعمله قيل: كيف يستعمله؟ قال: يوقفه لعمل صالح قبل الموت ثم يقبضه عليه) (أحمد، صحيحه الألباني/ المشكاة 5288). وفي رواية: (حتى يرضي عليه من حوله) صحيحه الألباني في الصحيحه/ 1114.

5- ستُ خصالٍ فيها النجاة:

عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (خصالٌ سِتٌّ؛ ما من مسلمٍ يموت في واحدةٍ منها؛ إلا كانت ضامناً على الله أن يدخله الجنةً) : رجلٌ خرج مجاهداً، فإن مات في وجهه؛ كان ضامناً على الله . ورجلٌ تبع جنazaً، فإن مات في وجهه؛ كان ضامناً على الله . ورجلٌ عاد مريضاً، فإن مات في وجهه؛ كان ضامناً على الله . ورجلٌ توضاً فأحسنَ اللوضوءَ، ثم خرج إلى المسجد لصلاته، فإن مات في وجهه؛ كان ضامناً على الله . ورجلٌ أتى إماماً ، لا يأتيه إلا ليغفر له ويؤقره ، فإن مات في وجهه ذلك ؛ كان ضامناً على الله . ورجلٌ في بيته ؛ لا يغتاب مسلماً ، ولا يجرئ إليهم سخطاً ولا نقمـةً ، فإن مات ؛ كان ضامناً على الله (السلسة الصحيحة: 3384).

فاحذر الغفلة وكن على واحدة من تلك الخصال الست.

6- من مات مرابطاً:

إن فضل الحراسة والرباط في سبيل الله عظيم، وقد جاء فيه من الأحاديث ما يجعل المسلم يتمنى أن كل حياته تكون رباطاً، عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه: أنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: (رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا..) (البخاري: 2892).

وعن سليمان، قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامٍ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ ماتَ حَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأَجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفَتَنَ) (مسلم: 1913).

وعن أبي الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رِبَاطٌ شَهْرٌ خَيْرٌ مِنْ صِيَامٍ دَهِ، وَمَنْ ماتَ مَرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمِنَ مِنَ الْفَرَغِ الْأَكْبَرِ، وَغُدِيَ عَلَيْهِ بِرِزْقِهِ، وَرِيحَ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيَجْرِي عَلَيْهِ أَجْرُ الْمَرَابِطِ، حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ) (الطبراني، وصححه الألباني في صحيح الجامع: 3479).

بل إن من مات مرابطاً في سبيل الله فله بكل يوم أجر صيام شهر وقيامه إلى أن يبعثه الله،

فعن سليمان الخير، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ رَابَطَ يَوْمًا وَلَيْلَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَانَ لَهُ كَأْجُرٌ صِيَامٍ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَمَنْ ماتَ مُرَابِطًا أَجْرِيَ لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ مِنَ الْأَجْرِ، وَأَجْرِيَ عَلَيْهِ الرِّزْقُ، وَأَمِنَ مِنَ الْفَتَنِ) (النسائي: 3167)، وصححه الألباني.

فحري بالمرابط أن لا يتذمر من طول الحراسة، ولا من شدتها، ولا يقول أريد الجهاد ولا أريد الرباط والانتظار، فقد قال عليه الصلاة والسلام: (..طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبِرَةً قَدَّمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ) (البخاري: 2286).

فالمجاهد الحق خرج في سبيل الله، وطاعة أميره من طاعة الله، فهنئاً لمن اصطفاه الله ليحفظ حوزة الدين، ويحرس عبادة المؤمنين، إنه شرف ما بعده شرف.